

دور الفعالية في بناء الذات الثورية

في منظور مالك بن نبي

The role of efficiency in the construction of the revolutionary self in Malek Bennabi's Perspective

د.مرزوقي بدرالدين Dr. Merzougui Badreddine labosigmadz@gmail.com	علم الاجتماع	مختبر تحليل وتصميم النماذج الإعلامية في التاريخ، الاقتصاد، الاجتماع والسياسة. كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، جامعة وهران1، أحمد بن بله، الجزائر
DOI: 10.46315/1714-009-003-018		

الإرسال: 2018 /08/09 القبول: 2020 /10/12 النشر: 2020/06/16

ملخص:

إن العلاقة بين الأفكار والأفعال في المنظور البنابي تتأرجح بين ثلاثة أبعاد: البعد الاخلاقي في علاقته بعالم الأشخاص ، البعد المنطقي في علاقته مع عالم الأفكار والبعد التقني في علاقته مع عالم الأشياء، لا ريب أن تبلور هذه الأبعاد في مشروع تاريخي وبوحي من فكرة دينية كحافز حيوي من شأنه أن يجعل الفكرة أصيلة وفعالة ، تعيد إنتاج الشروط الحضارية للأفراد والجماعات، أي "فكرة حية" تتحرك بصفة ديناميكية بين الوسائل والغايات الربانية في المكان وفي الزمان، وفي هذا الإطار الأيديولوجي "الثوري" تتحول "الذات الفاعلة" إلى "ذات ثورية" تمارس حضورها على مستوى عالم الأفكار ،عالم الأشخاص وعالم الاشياء داخل وخارج مجالها الحيوي بكيفية حضارية نموذجية وهنا تكمن مدى حيوية مثل هذه "الفعالية" أو "التوتر" في عملية بناء الذات الثورية في المنظور البنابي على الأقل.

كلمات مفتاحية: الحضارة؛ الثقافة؛ الفعالية؛ الأيديولوجيا؛ الثورة؛ الحافز؛ مالك بن نبي.

Abstract:

The link between thoughts and actions in a constructivist perspective slides between three dimensions: the moral dimension which is in relation to the world of people; the logical dimension which is in relation to the world of thoughts; and the technical dimension which relationship drives to the world of things. These dimensions are undoubtedly crystallized in a historical structure inspired by a religious thinking, which, in turn, represents a vital incentive to an authentic and effective reasoning. Moreover, representing the cultural environment of individuals and groups generates a "living idea" that moves dynamically between the means and the divine ends in place and in time. In this innovative, ideological framework, the "efficient self" turns into the "revolutionary self", which proves its presence within the world of "dynamic thoughts", within the world of people and the world of things, inside and outside of its vital space, in a rational, civilized way. In this regard, the vitality of such "efficacy" or "pressure" lies in a process of structural, revolutionary, self-building perspective, to say the least.

Keywords: civilization ; culture ; effectiveness ; ideology ; revolution ; motivation ; Malik bin Nabi.

مقدمة:

لا ريب أن كل ثورة هي مخاض عسير لفكرة تكون قد تولدت نتيجة صراع أو حوار بين عالم الأفكار وعالم الأشخاص وبدرجات متفاوتة كما وكيفاً. وإذا كانت الثورة الحقيقية (ثورة نوفمبر مثلاً) تحمل صراحة أو ضمناً معالم مشروع مجتمع هادف إلى تجاوز واقع مفروض من قبل أطر أكثر أو أقل مادية ومعنوية ظلت تعيق تكامل الإنسان المادي والروحي (الكرامة الإنسانية)، خاصة عندما يكون ذلك الواقع كولونيالياً كالواقع الفرنسي الاستيطاني في الجزائر لأكثر من قرن، فإن ثمار عملية التجاوز هذه لن تأت أكلها إلى بعد تمثل هذا الواقع المصطنع تمثلاً يكون كفيلاً بتمكين الذات الثورية من استقراء آثاره الجغرافية التاريخية، مروراً بعملية اختراق لمعطياته الظاهرية المتاحة وانتهاءً إلى فقه أسسه الفكرية والنفسية التي يستمد منها قوته واستمراريته، وهذا في إطار قراءة نقدية مقارنة للذات الثورية وللآخر (هذا الآخر). في الحقيقة، لن يكون ذلك التمثيل النقدي المسئول للواقع المتخلف والعمل الهادف لتجاوزه العقلاني، أي منطقته العملي إلا بالارتكاز على دعائم فلسفة ثورية (نظرية ثورية) أصيلة وخلقة. هذه المعرفة (الخبرة المكتسبة) تتطلب قدراً من الفعالية باعتبارها عملية استخلاص أقصى ما يمكن من الفوائد أو العبر من وسائل معينة مادية كانت أم معنوية. والإشكالية الإستمولوجية المطروحة في هذا السياق هي كالتالي: ما المقصود بالفعالية كمقياس لإنتاج الذات الثورية؟

ما هي أبرز خصائص هذا الضرب من الفعالية وكيف تتحدد مستوياتها عند المفكر مالك بن نبي باعتباره أحد أبرز المفكرين الثوريين في قضايا التخلف والتخضر في العالم العربي والإسلامي؟ ما هي باختصار أهم مميزات تلك "الثقافة الثورية" التي تبلور جملة من الحوافز المعنوية والمادية بحيث تضمن لشبكة العلاقات الفردية والجماعية قدراً من الفعالية والإنجاز سواء داخل مجالها الحيوي أو خارجه؟

1- مفهوم الفعالية في منظور بعض أبرز الباحثين المعاصرين:

الفعالية عند الفلاسفة هي كل عملية عقلية أو بيولوجية متوقفة على استخدام طاقة الكائن الحي أو كل عملية عقلية أو حركية تمتاز بالتلقائية أكثر منها بالاستجابة. ومذهب الفعالية هو القول بأن جوهر الحقيقة هو الفعل. وهذا مذهب له جانبان: جانب نظري وآخر عملي. أما النظري فيبحث في الفكر من جهة ما هو مبني على العمل ومتعلق به، بحيث يكون ميزاناً توزن به قيمة الفكر. وأما العملي فيبحث في السلوك الإنساني من جهة اتجاهه إلى تحقيق الأشياء في الخارج. (صليبا، جميل، 1979، ص 136).

أما الفعالية عند علماء النفس (حسب النشاط) فهي تفيد كل عمل أو وضع من أوضاع التعلم يبادر إليه المرء ويمارسه مدفوعا بالرغبة والاهتمام، بغية الوصول من وراء ذلك إلى هدف منشود أو غاية مرجوة. والاهتمام بالفعاليات يستغنى أكثر عن طرق التدريس التقليدية ويعتمد الدرس والخبرة والتجارب والتنقيب في حقول متعددة من حقول المعرفة. وتطلق كذلك على ذلك النشاط القائم على المبادرة الذاتية من جانب الفرد أو الطالب (المتعلم) نتيجة تنبيه داخلي وهذا بعكس ذلك النشاط الذي ينجم عن عوامل ومنبهات خارجية. كما تطلق لفظة الفعالية على النشاط القصدي (Purposeful activity) للدلالة على ذلك النوع من العمل الهادف إلى البلوغ نتيجة مقدرة ومدروسة، بحيث يمكنها أن تقوم بدور الحافز على النشاط والباعث على تأدية العمل: ينبغي تحديد الهدف المنشود ورسم خطة لتحقيقه، ثم المثابرة على وضع الخطة موضع التنفيذ. (أسعد، رزوق، 1979، ص 237-238) & (سالمى عبد المجيد وزملاؤه 1998، ص 190).

2 - خصوصية مقارنة "شاهد القرن":

تتحدد معالم الفعالية عند بن نبي باعتباره مفكرا ثوريا في ذلك الوعي الإستمولوجي بالصعوبات من حيث طبيعتها وأبعادها وانعكاساتها النفسية-الاجتماعية كعلامة على ذلك "النضج" في مظهره المزدوج الفردي أو الجماعي أو هما معا. فهو يرى أن المشاكل المختلفة التي نصنفها تحت عنوان "التخلف" هي في الواقع جملة من التعبيرات تندرج تحت مشكلة جوهرية واحدة أطلق عليها اسم "مشكلات حضارة". إن المشاكل التي يواجهها الفرد العربي في البلد الواحد أو غيره من البلدان العربية والإسلامية تترتب - حسب بن نبي - في مستويين: مشاكل داخلية تتصل بمواقفنا الفكرية والسلوكية نحن كأفراد، ومشاكل تتصل بمواقفنا نحن كشعوب عربية وإسلامية والتي تتفاعل سياسيا واقتصاديا وثقافيا مع مجتمع إنساني أوسع يلعب فيه معامل القابلية للاستعمار ومن ثم معامل الاستعمار دورا حيويا في عملية إعادة إنتاج ظاهرة التخلف الحضاري كما وكيفا، وبدرجات متفاوتة الخطورة في المكان وفي الزمان.

إذن مفهوم الفعالية عند بن نبي ينطلق من الأطر النفسية -الاجتماعية للتفكير باعتباره حركة جدلية بين الفكر والفعل كون التفكير هو قبل كل شيء تعبير عن توتر نفسي- اجتماعي لا علاقة له بذلك التفكير القائم على تكديس الأفكار والأشياء. إنه ضرب من التفكير العملي الذي يتوفر على إرادة حقيقية تنطلق من ذلك التغيير الخاص بشروط الحياة النفسية -الاجتماعية كشرط أساسي لإحداث انقلاب إيجابي على مستوى الأفكار والمفاهيم حول النفس والمجتمع والتاريخ. فالقضية عند بن نبي ليست قضية تكديس لمجموعة كبيرة من الأفكار المتباينة والأشياء المختلفة، بل القضية منوطة بتقدم علمي ومعرفي من منطلق نقد ذاتي أصيل وخلاق لمختلف الأمراض النفسية -الاجتماعي المتمثلة في "معامل القابلية للاستعمار" (السبب) و"معامل الاستعمار"

(النتيجة) من أجل الوقوف على أصل الداء. إنه (مفهوم الفعلية) يصبو إلى معرفة الأسباب الحقيقية، وليس الأعراض ثم اقتراح علاج نفسي-اجتماعي على مستوى التفكير والسلوك، يربط الفكر بالعمل والواقع المعيش في إطار حضاري أصيل ومبدع وفي هذا المعنى يقول بن نبي: "إن نظرتنا إلى التاريخ لا تؤدي إلى نتائج نظرية فحسب، بل إلى نتائج تطبيقية تتصل بسلوكنا في الحياة، فهي تحدد مواقفنا أمام الأحداث، وبالتالي أمام المشكلات التي تنجم عنها..." (بن نبي، مالك، 1979، ص126).

إذن هناك موقفين تجاه قراءة الأحداث والوقائع والتفاعل معها: قراءة سلبية للأحداث الاجتماعية والوقائع التاريخية لاتسع الإنسان - نتيجة معامل القابلية للاستعمار- إلا الخضوع والاستسلام للواقع ومسايرة الظروف باعتبارها من حكم القضاء والقدر. وهناك قراءة أخرى واعية مسؤولة تربط ربطاً جدلياً بين الأسباب والمسببات، يرى فيها الإنسان، أن حركة التاريخ من حركته، وركوده من ركوده وهذا باعتباره كطرف فعال في إرادة التغيير الحضاري وفي هذه النظرة الأخيرة يقول بن نبي. "أما نظرتنا الثانية إليه فإنها بدلاً من تلقي على أكتافنا ثقل الأحداث، تجعلنا نحدد إزاءها مسؤولياتنا. فبقدر ما ندرك أسبابها ونقيسها بالمقياس الصحيح، نرى فيها منها لإرادتنا وموجهات لنشاطنا. وبقدر ما نكتشف من أسرارها نسيطر عليها بدلاً من أن تسيطر علينا، فنوجهها نحن ولا توجهنا هي لأننا حينئذ نعلم أن الأسباب التاريخية كلها تصدر عن سلوكنا وتنبع من أنفسنا، من مواقفنا حيال الأشياء، أعني من إرادتنا في تغيير الأشياء تغييراً يحدد بالضبط وظيفتنا الاجتماعية كما رسمها القرآن في الآية المحكمة في قوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ (سورة آل عمران، الآية رقم 110) ، هذا "المعروف" الذي يتجسد بشروطه الفقهية - السياسية العامة ومعانيه الكلية - وهذا هو المعنى العام للفعلية." (بن نبي، مالك، 1979، ص126).

في مكان آخر، نجد أن المفكر بن نبي عند تحليله للطاقت الاجتماعية إلى عناصرها الأولية المتمثلة في اليد والقلب والعقل كأساس للفعلية، يذهب إلى أن الطاقة الاجتماعية الصادرة عن دوافع القلب وعن مبررات العقل وتوجيهاته وعن حركة الأعضاء والمتظافرة من أجل خلق النشاط الفعال في ظروف معينة ينتقل إلى الحديث عن مفهوم التوتر كمرادف للفعلية. وفي هذا المعنى يقول: "...إن فكرة الفعلية أو التوتر تمس الواقع الاجتماعي في كل الظروف فالتوتر حالة نفسية اجتماعية دل التاريخ على أنها تنشأ في ظروف معينة ثم تزول في ظروف أخرى، وأن المبررات التي تكون الدوافع الإنسانية التي تدفع النشاط إلى أعلى قمة، تختلف من حيث القوة والدرجة من مجتمع إلى آخر، بل وتختلف من فترة إلى أخرى في المجتمع الواحد." (بن نبي، مالك، 1979، ص38).

3- خصائص الفعالية:

بناءً على ما سبق يمكن استنباط أبرز الخصائص التي تتصف بها الفعالية أو التوتر في المنظور البنائي على النحو التالي:

أ-إرادية (Volontaire): فهي فعل إرادي أي فعل مقصود يكون مسبقاً بتدبير محكم (التوكل لا التواكل).

ب-غائية (Téléologique): باعتبارها فعل اجتهادي، تتمفصل معاملة عبر خطة علمية هادفة، يقصد من ورائها تحقيق غاية مثلى

والتي هي بمثابة الإطار التبريري العام الذي يشترط مختلف المبررات (الشهود الحضاري).

ج-توجيهية (Directrice): ويتمثل في استغلال عقلائي واستثمار أمثل للإمكانات المادية والمعنوية في إطار تركيبة حضارية أصلية وخلاقة، أي تركيبة حضارية مشروطة في المكان وفي الزمان (الوسطية). فالسلوك الفعال يرفض ذلك التفكير الاعتباطي أو تلك التصرفات غير العقلانية التي يتجاوز فيها الفعل حدود الإمكانات المتاحة، فيحدث اختلالاً بين الوسائل والأهداف، أي بين الأسباب والمسببات (ذهان السهولة أو ذهان الاستحالة).

د-ديناميكية (Dynamique): وتتمثل في العمل الدؤوب (الاجتهاد الأصيل والمبدع) الذي ينتج ويعيد إنتاج النشاط الفكري والعملية دون ملل أو كلل لأن العمل الإرادي حيوي بطبيعته مبرراته ودوافعه النفسية - الاجتماعية.

هـ-نمذجة حضارية (Modélisation civilisationnelle): التي هي إرادة التعبير العيني الملموس لثقافة حضارة ترسم معالمها على مخطط "تعبوي" و"استراتيجي" وطنيين". فالحضارة هي التي تشكل هذه القدرة وهذه الإرادة اللتين لا تقبلان الانفصال عن وظيفة المجتمع النامي داخل المساحة الخاصة به في إشعاعه الثقافي، والاقتصادي والديني، وحتى في توسعه السياسي أو الإمبريالي كذلك." (COUTEAU-BEGARIE, Hervé, 2002, pp271-298)، & (بن نبي مالك، 1979، ص 46). وعليه فإن قضية الطاقات الاجتماعية وكيفية توجيهها عند مالك بن نبي، ليست منوطة بالجانب السياسي بقدر ما هي منوطة بالجانب النفسي (الأسباب والدوافع النفسية) الذي يوجه هذه الطاقات الظاهرة والباطنة بكيفية حضارية أصيلة وخلاقة إذ بقدر ما يكون النشاط الفردي موجهاً لسد حاجات غير فردية بقدر ما يكون موجهاً لمصلحة عامة وهذا انطلاقاً من سنة تاريخية واجتماعية قد أصبحت مبدأً تنظيمياً مفاده أن الفعالية تنمو تدريجياً مع تعقد المصلحة (بن نبي، مالك، 1979، ص 32-36).

4-مستوياتها الفردية والجماعية:

لقد استنتجنا في إطار المبحث السابق أن معالم الفعالية تتحدد في ذلك الوعي الإبتيمولوجي بالنفس وبالمجتمع وبالتاريخ كأفعال وردود أفعال وفي إطار عوامل نفسية-اجتماعية توجب علينا مقارنة أبعادها ومستوياتها المعقدة في أطوارها التاريخية المختلفة فهي تتجلى للباحث كما يلي:

١-الفعالية على مستوى الفرد: تعبر الفعالية عن حالة نفسية يسودها القلق باستمرار كلما شعرت النفس الإنسانية بوجود خطر واقعي أو عقلي يلوح في الأفق، نتيجة التفكير (التنبؤ العلمي) أو تفاعل الأحداث والوقائع الاجتماعية والنفسية في المكان وفي الزمان. وبأسلوب أكثر دقة نقول، إن مفهوم الفعالية يتخذ عند الفرد معنى نفسي-اجتماعي عميق ينطلق من ثورة أخلاقية على الذات تمس آليات التفكير والعمل، أي ثورة على الذات تخلق وعيا جديدا بمفهوم العقل، عندما تحوله من عقل متأزم (متخلف) إلى عقل "حي" يصنع المعجزات الحضارية على مستوى أساليب التفكير والعمل (التنظيم). كما يخلق وعيا جديدا بمفهوم الزمن، عندما تحوله من العدم والإسراف إلى "ثروة" اجتماعية ضرورية للمحافظة على البقاء، أو لتحقيق الخلود، أو التغلب على الأخطار. كما تخلق كذلك وعيا جديدا بالمال، عندما تحول الاستثمار الفردي أو الجماعي من مجرد رأسمال مادي إلى رأسمال رمزي معرفي (نفعي) عن طريق التنمية الاجتماعية للموارد المالية والبشرية^٩ (COVEY, Stephen, 1996,p320) & (COVEY, Stephen, 2006, pp37-45) و (جمال، الدين جمال، 2005، ص 319-351). . وبتعبير بنابي نقول: "وحيثما لا يكون الوقت من أجل الإثراء أو تحصيل النعم الفانية أعني حينما يكون لازما للمحافظة على البقاء، أو لتحقيق الخلود، والانتصار على الأخطار، تسمع الناس فجأة صوت الساعات الهاربة، ويدركون قيمتها التي لا تعوض. ففي هذه الساعات، لا تهتم الناس الثروة، أو السعادة، أو الألم، وإنما الساعات نفسها، فيتحدثون حينئذ عن "ساعات العمل"، أعني العمل الوحيدة المطلقة التي لا تبطل، ولا تسترد إذا ضاعت: إن العملة الذهبية يمكن أن تضيع، وقد يجدها المرء بعد ضياعها، ولكن لا تستطيع أي قوة في العالم أن تحطم دقيقة، ولا أن تستعيدها إذا ضاعت." (بن نبي، مالك، 1979، ص139-140).

ب-الفعالية على مستوى الأسرة: وتتمثل في حسن التدبير والتنظيم، وحسن المعاشرة حيث تظهر فعالية الوالدين في سلوك أطفالهم وأسلوب حياتهم، في ملابسهم وطريقة أكلهم وفي حديثهم ولطف معشرهم وحسن خلطهم ومواهبهم المبكرة المتنامية وغيرها من الاستعدادات والقدرات والمكتسبات (تربية مبدئية). (جودت، سعيد، 1984، ص 12) & (جلطي، بشير، 1992، ص121). في مقابل هذا الضرب من الفعالية التربوية داخل الأسرة، انتقد بن نبي مواقف الأسرة اللافعالية والتي عادة ما تجسد في تربية متطرفة تعتمد فيها الأم أو الأب أو هما معا أسلوب القهر والإذلال،

ج- الفعالية على مستوى المجتمع: وتحيلنا هذه المسألة على فكرة التنظيم من حيث القوة والدرجة فهي تستقي حيويتها المادية والمعنوية من منهج تربوي، يحدد إحدائيات سير المجتمع في التاريخ. فالمجتمع - وفق هذا المنظور الإبيستمولوجي- ليس حاصل تحصيل مجموعة أفراد، بل إن وحدة هذا المجتمع ليس الفرد وإنما في الحقيقة ذلك الفرد "المشروط" الذي يتولى المجتمع تشكيله، وتكييفه في إطار العادات والتقاليد والأعراف باعتبارها مناخاً أخلاقياً عاماً. هذه الأخيرة التي يلعب فيها "العنصر الديني" أهمية حيوية في عملية تفعيل الطاقة النفسية الأساسية لدى الفرد (الأفراد)، وفي تنظيم الطاقة الحيوية الواقعية في تصرف "أنا" الفرد، ثم في توجيه هذه الطاقات طبقاً لطبيعة ونوعية النشاط المبذول الخاص بهذه "الأنا" داخل عملية التبادل الاجتماعي المعقدة، وتبعاً للنشاط المشترك الذي يمارسه المجتمع في المكان وفي الزمان. إن هذه "القواعد" العامة المستقاة من علم التاريخ، وعلم الاجتماع، وعلم النفس هي ثوابت (سنن) تاريخية. فقد أثبتت التجربة أن الزمن لا يغير من طبيعتها، أي من جوهرها، وإنما تغير المجتمعات من حيث مظاهرها الخارجية كون "الطاقات الحيوية" موجودة بالقوة وبالفعل. وهذه القوة وهذا الفعل تجد دلالتها في صيغة قانون سوسيولوجي رباني عبر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بمصطلح "الخيرية". إن نهضة المجتمع ما -في الفكر البنائي- تتم في نفس الظروف العامة التي تتم فيها عملية الميلاد (الشروط النفسية - الاجتماعية)، كذلك يخضع تشييد مثل هذا المجتمع أو إعادة تجديده لنفس القانون (النفسي- الاجتماعي). وعليه فإن النهضة التاريخية لمجتمع ما تمثل درجة النمو الحضاري (الفعالية) الذي يحصل على مستوى شبكة العلاقات الفردية ومن ثم الجماعية. لا شك أن هذه النقلة النوعية تشكل مرحلة "روحية" تكون فيها هذه الأخيرة قد اتفقت مع شبكة العلاقات الاجتماعية عندما وصلت العلاقات الإنسانية المعقدة إلى أوج تبادلها الحيوي من حيث كثافتها لا من حيث عدد أفرادها. لقد دلت هذه الكثافة أو نوعية العلاقة المتبادلة بين عالم الأفكار وعالم الأشخاص وعالم الأشياء على أن "الفرد يكتسب مجموعة انعكاساته، كما يكتسب المجتمع شبكة علاقاته، والعلاقة وثيقة بين جانبي المسألة: فهي علاقة كونية تاريخية إذ أن المجتمع يخلق الانعكاس الفردي والانعكاس الفردي يقود تطوره." (بن نبي، مالك، 1986، ص 61) & (بن نبي، مالك، 1986، ص 50-75). ولعل عبارة "البنيان المرصوص" التي وردت في القرآن والحديث الشريف صراحة وضمناً وفي أكثر من موقع تفيد هذا المعنى الجوهري. وبأسلوب

آخر نقول إن المرحلة الروحية تكون قد تطابقت والمرحلة التي راح فيها الفرد يحتل موقع أكثر تقدماً وإيجابية من الناحية النفسية - الاجتماعية، وهذا في ظل مناخ إيديولوجي ديناميكي، يكون فيه نظام أفعاله وردود أفعاله في أدائه على مستوى الفعالية الاجتماعية كما تكون طاقته الحيوية في أتم حالات تنظيمها. ويؤكد بن نبي أن قمة هذا التبادل الخلاق بين "الأنا" و"النحن"، تشكل "الطرف الاستثنائي" الذي يتطابق مع ظهور المجتمع والحضارة، إذ يقول في هذا المعنى: "هذا هو العصر الذهبي بالنسبة لأي مجتمع، لا من حيث أنه يبلغ آنئذ أوج ازدهاره، وإنما لأنه يتمتع بميزتين:

فقواه جميعاً في حركة، هذه الحركة دائمة صاعدة. وهذه هي المرحلة الديناميكية التي يدان فيها كل اتجاه نحو التقاعس أو السكون، وهو ما حدث في تاريخ المجتمع الإسلامي الناشئ في قصة "الثلاثة الذين تخلفوا" (بن نبي، مالك، 1986، ص 70-71).

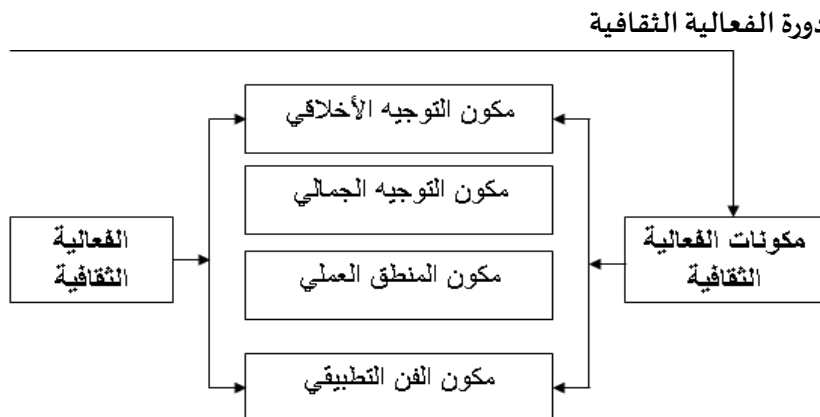
د-الفعالية على مستوى العالم: وتتمثل في الدفاع عن شبكة العلاقات الاجتماعية كمعنى أولى للحضارة. فهذه الأخيرة تشكل إطار إيديولوجيا يتعلم فيه الإنسان كيف يعيش في جماعة مع إدراكه المتنامي في النفس الوقت للأهمية الرئيسية الذي تؤديه شبكة العلاقات الاجتماعية من حيث الدور الحيوي في عملية تنظيم الحياة الإنسانية من أجل وظيفتها التاريخية.

إن القوانين الحديثة سواء في أصولها الدينية من جهة، أو في إطارها الوضعي من جهة أخرى، هي في الحقيقة، ليست إلا تطبيقاً متنوعاً لتعاليم أخلاقية تكاد تكون مشتركة قد اكتسبها الأفراد أو الجماعات في إطار ظروفهم التاريخية، وتجاربهم الخاصة بصفة شعورية أو لا شعورية كأقصى الصور التي تتجلى فيها تلك الإرادة العليا على مستوى الخلق والتدبير. إن كل قانون من القوانين الأخلاقية في جوهره إنما وجد أصلاً للدفاع عن شبكة العلاقات الاجتماعية، وهذا المعنى يؤكد المفكر بن نبي "أن كل قانون من هذه القوانين، إنما جعل للتقليص من الآثار المفرقة الطردية والإكثار من الآثار الموثقة الجذبية في شبكة العلاقات التي تتيح له جميع أوجه النشاط الاجتماعي في أي مجتمع ولید، انطلاقاً من أكثرها بساطة إلى أشدها تعقيداً في المجتمعات التي ارتقت سلم الحضارة صعوداً. إن عبارات من مثل: "لا تقتل بغير حق"، "لا تسرق"، "لا تكذب"، "لا تشتم"، "لا تخون الأمانة" وغيرها من القيم السامية، هي مبادئ "دينية" تحمل دلالات أخلاقية كثيرة تهدف - بصفة شعورية أو لا شعورية - إلى التقليص من الآثار الطردية في ميول الأفراد، ومن ثم الجماعات في المكان وفي الزمان. كما أن عبارات من مثل "كن مؤمناً"، "كن صبوراً"، "كن متسامحاً"، "كن حليماً"، "كن قوياً" وغيرها من التعاليم الدينية والأخلاقية هي ترمي أيضاً بصريح العبارة إلى الإكثار من الآثار الجذبية في الميول الجماعية على مستوى العمران البشري. وعليه، إن كل مجتمع من المجتمعات إلا ويتميكل في إطار مثل هذه التعاليم، سواء أكانت دينية أو أخلاقية وتبعاً لتجربته

التاريخية الخاصة التي خاضها (أو يخوضها) من أجل إعادة إنتاج شروط حياته الإنسانية والتي يلخصها علماء الأنثروبولوجيا والإثنولوجيا في كلمة واحدة جامعة مانعة هي "الثقافة"، خاصة عندما تفيد هذه الأخيرة في "الثقافة الإسلامية" على سبيل المثال معالم نظرية في السلوك أكثر من كونها نظرية في المعرفة، أي في صورة برنامج تربوي يضطلع بمهمة تغيير الإنسان الذي لم يدخل بعد عتبة الحضارة في ظروف نفسية زمنية معينة، أو لإبقاء الإنسان المتحضر في مستوى وظيفته الاجتماعية السامية، وفي مستوى أهداف الإنسانية. إن الفعالية على هذا المستوى التربوي الأصيل والخلاق تهدف في نفس الوقت إلى انقاد البشرية من طوفان الاستلابات الظاهرة منها والباطنة¹⁵ (مزيان، عبد المجيد، 1972، ص ص 8-15) & (وجيه، ح، 2007، ص ص 205-224). هكذا تصبح أبرز شروط هذه الفعالية هي معرفة الإنسان لنفسه أولاً ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ (سورة الرعد، الآية 11)، ومعرفته للآخرين مصداقاً لقوله تعالى ﴿إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ (سورة الحجرات، الآية 13) كمرحلة ثانية في عملية الاتصال الثقافي والحضاري، سواء على مستوى قومي أو عالمي معاً، وهي معرفة ذات بعد جيو-ستراتيجي تمكنه من إدراك الكثير من المعطيات الجغرافية والنفسية والتاريخية والاقتصادية والاجتماعية والإيديولوجية وغيرها من الأبعاد الحضارية الأخرى. فلا شك أن الغاية من معرفة هذين البعدين الإنسانيين المرتبطين بأسباب القوة الداخلية والخارجية تتلخص في عنصرين حيويين هما أولاً: ضمان حد أقصى من الحماية لجهاز مناعتنا الثقافي من تسرب بعض أنواع من "الفيروسات" الناقلة للأمراض الاجتماعية، باعتبارها أفكار معدية تخرق المجال النفسي-الاجتماعي (المجال الحيوي) وتساهم في إعادة إنتاج التخلف الثقافي (اللافعالية). ثانياً: إنشاء فضاءات علمية ومعرفية للحوار بالحكمة والجدال والتي هي أحسن بين الثقافات والحضارات المختلفة كضرورة إنسانية (اتصال حضاري)، تتيح للأفراد والجماعات الصغيرة والكبيرة أن يتصوروا ويمارسوا في الوقت ذاته علاقات جديدة (إيجابية) بالطبيعة وببقية البشر وبالمستقبل من باب العدل والإحسان.

باختصار يتلخص مبدأ الفعالية على مستوى العالم في ممارسة الفرد من خلال الجماعة ذلك الحضور الإيجابي (الملاحظة بالمشاركة) على مستوى التفكير أو على مستوى الممارسة الحضارية من أجل تفعيل الوعي الفردي والجماعي بالأخطار الكونية المحدقة على مدى القريب أو المتوسط أو البعيد. وهو دور يتمثل في انقاد البشرية من الدمار والهلاك من خلال تكافل الجهود المادية

والمعنوية (بن نبي، مالك، 1978، ص39) حيث تتجلى دورة الفعالية الثقافية في إطار مكوناتها الحضارية الحيوية على النحو التالي:



وهكذا " وبتوالي إنتاج الأفعال الثقافية المضافة، يتعزز المخزون أو المنجز الثقافي الكلي للمجتمع والأمة، وتتعزيز الشروط الموضوعية للفعالية التي ترفع من مستوى أدائها الحضاري، وتوفر لهما المزيد من شروط الأمان الاجتماعي والأمن الحضاري، فيؤديان رسالتهما العالمية والإنسانية والكونية بكفاءة واقتدار وأناقة حضارية. (برغوت، الطيب، 2004، ص ص66-67).

خاتمة:

إذا كان المفكر مالك بن نبي يؤمن بأن الحضارة في جوهرها نمو إيجابي، باعتبارها عودة نقدية بناءة إلى الذات الفاعلة على ضوء إرغاصات فكرة دينية أو أخلاقية قد تشرب عالم الأفكار، عالم الأشخاص وعالم الأشياء في تركيبة تربوية، أصيلة وخلاقة من شأنها أن تساهم بفعالية في عملية خلق أو تنمية مساحات تفكير واجتهادات "جديدة"، أي " ذات ثورية "، فإنه يرى في الوقت ذاته أن ظاهرة الانحطاط التي أنتجها – بصفة شعورية أو غير شعورية - " إنسان ما بعد الموحدين " تحمل دلالات تخلف الفكرة، خاصة عندما تتحول هذه الأخيرة إلى مجرد "حديث" يقتصر على قول الأشياء أو تكديسها فقط بدلا من أن يتحول إلى تفكير إرادي، غائي، توجيهي، ديناميكي يتبلور في نمذجة حضارية تعيد إنتاج الفعالية في عملية " بناء الذات الثورية " أو تطويرها كما وكيفا إن وجدت، وهذا ضمن اشتراطات " نفسية زمنية " معينة.

في الواقع لقد أخطأ المفكر بن نبي عندما اعتبر أن العامل المرجعي يكمن في نفسية المسلم، وشخصيته السلبية وقابليته للاستعمار التي تصنع منه إنسانا لا فعالا تجاه عالم الأفكار، عالم الأشخاص وعالم الأشياء وقد سماه "إنسان ما بعد الموحدين".

لا ريب أن هذا العامل المرجعي عند التحليل الموضوعي هو في الحقيقة نتيجة عوامل سابقة ولا حقة بعضها داخلي وأخرى خارجية. هناك العديد من المفكرين الإصلاحيين البارزين من ذهب إلى أن العامل المرجعي في عملية تخلف المسلمين وعودتهم القهقري يتمثل في نظام الحكم والإدارة السياسية وتحديدًا في السلطة الحاكمة في كل مجتمع إسلامي، أي أن القيادة أو القيادات المتوالية على الحكم داخل معظم المجتمعات الإسلامية هي التي تتحمل المسؤولية الكبرى على تدهور الأوضاع المادية والمعنوية في المكان وفي الزمان، عندما حلت العصبية القبلية والغلبة بالسيف والاستبداد الفكري والسياسي محل الشرعية والتمثيل الشوري الحقيقي الأمر الذي أفرز قطيعة تاريخية عن الخلافة الراشدة مؤذنا بانقطاعات أخرى يكملها المستقبل . لقد حصل شرح بين الدولة والأمة ولم يعد العرب والمسلمون يطبقون عبقريتهم الخاصة (فعاليتهم الثورية) على أرضيتهم وأزمانهم إلا استثناء. ومثل هذه المرجعية في عملية التحليل السياسي بامتياز هي ما تبناها بعض أبرز المصلحين والمفكرين الثوريين أمثال الأفغاني، الكواكبي وعلال الفاسي الذين أثبتوا بكتاباتهم تارة وبمواقفهم طورا مدى فساد الحكم الاستبدادي في معظم المجتمعات العربية والإسلامية محملين أصحابه جل ما حل بالعرب والمسلمين من تخلف وتدهور مادي ومعنوي في المكان وفي الزمان.

قائمة المصادر والمراجع المعتمدة:

- برغوث، الطيب، (2004). محورية البعد الثقافي في استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، سلسلة آفاق في الوعي السني (7)، ط2، الجزائر: دار قرطبة.
- بن نبي، مالك، (1979). مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي: ترجمة محمد عبد العظيم، ط1، بيروت: دار الفكر.
- بن نبي، مالك، (1986)، ميلاد مجتمع: شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة عبد الصبور شاهين، الجزء الأول، دمشق: دار الفكر.
- بن نبي، مالك، (1979). تأملات (حديث في البناء الجديد وتأملات في المجتمع العربي). ط4، دمشق: دار الفكر.
- جمال الدين، جمال، (2005). الإنسان الفعال (المزايا العشر للإنسان المتفوق)، ط2: دمشق: دار الفكر.
- جودت، سعيد، (1984). الإنسان حين يكون كلا وحين يكون عدلا. دمشق: مطبعة زيد بن ثابت الأنصاري.
- رزوق، أسعد، (1979). موسوعة علم النفس. ط2، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

- سامي، عبد المجيد وزملاؤه (1998). معجم مصطلحات علم النفس (عربي-فرنسي-إنكليزي). ط1، القاهرة: دار الكتاب المصري.
- صليبا، جميل، (1979). المعجم الفلسفي: ج2، بيروت: دار الكتاب اللبناني.
- وجيه، حسن محمد (2007)، التفاوض في عصر الاستفزاز. ط1، القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر.
- *- المجالات
- مزيان، عبد المجيد: "طوفان الاستلاب"، مجلة الأصالة، العدد 6، للسنة الأولى ذو الحجة 1391 هـ جانفي 1972، ص ص 8-15.
- *- الرسائل الجامعية
- جلطي، بشير، (1992). الاتجاه التربوي عند مالك بن نبي: رسالة ماجستير في علم النفس وعلوم التربية، إشراف جلال بوحمادة، معهد علم النفس وعلوم التربية، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران (السانيا)
- *- المراجع باللغة الأجنبية
- COUTAU-BEGARIE, Hervé, (2002), Traité de stratégie, Eds. Institut de stratégie comparée/Economica, 3^{ème} éd. Revue et augmentée, page 271-298.
- COVEY Stephen R. (2006), L'étoffe des leaders, traduit de l'américain par Catherine Cullen, FIRST éd. Paris.
- COVEY Stephen R. (1996), Les septes habitudes, traduction de Magali -Guenette, FIRST éd. Paris.
- COVEY Stephen R., (1995), Priorité des priorités : vivre, aimer, apprendre et transmettre, traduction de Alice Bréa et all., FIRST éd. , Paris.